اسلوب القرآن الكريم ومفردات ألفاظه (*)

- ١ -

القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن عزيز حكيم ، نزل بلسان عربي مبين ، هدى للناس . نعم ، انه يهدي الناس الى طريقين : طريق الدين المستقيم ، وهو الغرض الأول من نزوله . وطريق الأدب العالي الرفيع ، والبيان الجلي القويم ، وهو الغرض الثاني من نعمة حصوله . وهو بطريقه الأول أنشأ ديناً حكيماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اقتلع جذور الشرك من الشرق الأدنى والشرق الأوسط وطرف من الشرق الأقصى ، ولوح بنوره في الأقطار الأخرى ، فلم يقو ذلك الشرك المزمن الذي كلكل على الشرق بجرانه على مصاولة دين التوحيد الصحيح القوى الأساس ، العزيز الحجة الواضح المحجة ، فاستبدلت الأمم التوحيد بالشرك ، والأخوة بالبغضاء ، والتناصر بالتناحر ، والتآزر بالشقاق ، والمجتمع الصالح بالمجتمع الفاسد . وأبدع علوما صقلت العقول ، وأيقظتها من سبات عميق طويل ، وكشف عن النفوس الأغطية الكثيفة حتى أصبحت حديدة الأبصار ، لامعة البصائر ، فعرفت ذواتها ، وعلمت أنها أفضل المخلوقات ، وأنها سواء فيما بينها ، فتحررت من عبادة الأحجار والحيوانات والأشخاص ، وأخذت تبحث في سموها ، والطهارة من أدرانها ، والتحلل من أوزارها ؟ والعقول اذا انتبهت فلا حدّ لمدى سيرها ، ولا نهاية لعمقها وغورها . وأحدث نظام المساواة بين الناس ، وقرر احترام الانسانية وحقوق البشر ، ووضع لهم دستورا صالحاً في معاملاتهم فيما بينهم . فالمظلوم منصور ، والظالم مقهور ، والله الحاكم العادل .

هذا مجمل مما أدى اليه طريقه الأول ، ولسنا في مجال تفصيله ، أو الاستزادة من اجمال سائر نواحيه ، فلذلك مقال آخر . وانما نبحث هنا أسلوب القرآن ومفردات ألفاظه : مما يدخل في عموم الطريق الثاني .

الطريق الثاني : الأدب العالي الرفيع ، وقد هدى الى ذلك بأسلوبه ، ومفردات ألفاظه . وانا لباحثون هذين بما استطعنا من ايجاز .

(*) محاضرة للأستاذ السيد منير القاضي ألقاها في دار المجمع العلمي العراقي

أسلوب القرآن الكريم

ينقسم كلام العرب الى منظوم ومنثور . فالمنظوم ما طبع على أوزان خاصة معدودة ، وصب فى قوالب معينة ؛ ولا يتجاوز المعروف من تلك الأوزان ستة عشر وزناً تسمى بحور الشعر ، والأولى أن تسمى بحور النظم . ولا تتعدى تلك القوالب أعداداً محسوبة لكل وزن من أولئك الأوزان . والمنثور ما لم يقيد بوزن ، أو يقصر على قالب ، أو يوسم بطابع . فقد يأتى مسجعاً مقفى يحاكى سجع الحمام المغنى أو الباكى ، وقد يرد مرسلا كالسلسبيل العذب المطرد فى مجاريه النضرة ، المنساب الى النفوس سائغا قراتا ، وقد يجىء مزيجا من النوعين ، يقف تارة مفرداً أو باكياً بلا تعمل أو تكلف ، ويجرى أخرى صافياً مطلقا كالزلال العذب ، أو النسيم الطلق ، وهكذا يتلون ويتقلب فيروى النفوس الظمأى ريا ، وينعش الأرواح انعاشا . وان كنت فى شك من ذلك ، فارجع بصرك الى منثور الجاحظ وأبى حيان التوحيدى من المتقدمين ، ومنثور المنفلوطى والرافعى وطه حسين من المتأخرين ، تجد الدليل واضحاً ، والحجة قائمة .

والقرآن الكريم منثور له طابعه ، وله أسلوبه ، وله طريقته . لم يعهد للعرب قبله أن جرت فى نثرها مجراه ، أو سلكت أسلوبا يشاكه أسلوبه ، أو يشابه سبيله ، أو يشاكل طريقته . وان كنت فى ريب من ذلك ، فاستعرض منظوم الجاهلية ومنثورها ، وتأمل ما حفظ من مقالات بلغائها وحكمائها وكهانها وحنفائهـا ونساكها ، يأتك اليقـين راسخا ، وتسطع لك البينة واضحة .

انه منثور عنوانه (الآيات البينات والذكر الحكيم) ، واسمه القرآن الكريم ، لا هو بالنثر الفنى ، لأن الفن الأدبى وقواعد اللسان العربى انما حدثت بعده ، واستمدت من ثروته الأدبية ، واصطلح عليها بعد دهر من نزوله . ولا هو بالنثر الدارج بين أمة عصره ، للاختلاف الواسع بينهما ، من حيث مفرداته ، وتراكيبه وصياغته ، وبحثه ، ومناظرته ، واحتجاجه ، ووضوحه ، وجزالته ، وفصاحته ، وبلاغته ، وبراعته ، وسمو مراميه ، وحسن قصصه ، وقوة مداخله ، وسهولة مخارجه ، وشريف مواضيعه ، وبليغ حكمه ، وعدالة أحكامه ، وصرامة وعظه ، ولطافة ارشاده ، ومقارعته الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، الى أن يفحم الخصم ، فيرتد بصره وهو حسير ، وتقف بصيرته كليلة خائرة ، فيرفع راية التسليم ، ومن حيث اعماله الأذهان ، وكشفه السجف عن النفوس ، وهتكه الحجب عن الأنظار ، واطلاق العقول من أسرها . (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولو الالباب) .

وأسلوب القرآن الكريم تختلف طرقه باختلاف الموضوعات التي يطرقها والمرامي التي يستهدفها . فهنالك أسلوب واحد ، وهنالك طرق مختلفة الاتجاه متحدة الأسلوب .

أما أسلوبه الواحد فهو الركون الى الوضوح في أداء المراد بألفاظ هي الدرر المنتقاة من بحر اللغة ، المختارة من بين أترابها من لسان العربية المبين ، الواقعة في محلها وقوع المقل في محاجرها ، فلا يسد غيرها مسدها ، ولا يغني عنها غيرها . ونظم هو السهل يعجز البليغ عن محاكاته وان تخيل قدرته على ذلك ، لما يراه من يسر المادة التي جاء بها ، وظهور المعاني التي يحملها ، ولألفة نسج التراكيب العربية التي ينسج على منوالها . يرى ذلك سهلا عليه ، ولكنه اذا أعمل ذهنه ، وسدد سهمه ، وأرهف قلمه ليأتي بمثله ، تراجع القهقرى مقرا بالعجز ، معترفا بالتقصير . (لو شئنا لقلنا مثل هذا) ، ولكنهم لم يقولوا مثل هذا ، اذ لم يستطيعوا ذلك . فلو استطاعوا ، لقالوا ، الزاماً لخصمهم الذي تحداهم (قل فأتوا بسورة من مثله) ، وافحاما لمناظرهم الذي سفه أحلامهم ، وقوض خيامهم ، وهد بنيانهم ، وأمعن في تدميرهم وابطال طارفهم وتليدهم . لو كانوا يستطيعون ، لفعلوا ، فكانوا هم الفائزين (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

ولا يقتصر أسلوب القرآن الكريم على الوضوح ، والبلاغة ، والبراعة ، وحسن البيان ، وحسن الابتداء ، وحسن الانتهاء ، وتناسب الآيات وانسجامها في كل سورة حسناً لا يجاري وتناسباً لا يباري ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وايقاع التراكيب في مواقعها ، واطلاق النظم منسجماً مترابطاً سهلا ، تشتف الأذهان معانيه كما تشتف الأرض المحلة الغيث الممرع . بل هناك سر آخر - هو سر اعجازه - وهو شهادة الأذواق السليمة على سمو نظمه بحيث تنقطع دونه معارج البلاغة ، وتنحط عن بيانه شموس البراعة .

والأذواق السليمة هي فيصل التفرقة في الأدب بين الغث والسمين ، والبدين والهزيل ، والقوي والضعيف ، والرخيص والثمين . ان الأذواق السليمة لتستبشر عند تذوقها جلال اعجازه وفخامة ابداعه ، وتستحلي رقة بيانه ودقة معانيه وقوة أدائه ، وتقول : هل من مزيد ؟ مهما زودتها من آياته ، وأتحفتها من سوره وبيانه . فاستشهد ذوقك ، وهو خير الشاهدين . وان كان المرء مريض الذوق فلينزهه في حدائق البلغاء ، وليداوه بهضم ثمارها حتى يعود سليما ، ثم ليستشهده على ما أقول فسيجده من أصدق الشاهدين وأحكم الحاكمين .

وأما طرائقه فقدد ؛ وكلها فى حدود البيان على خط واحد ، وفى فلك البلاغة على دائرة واحدة ، هى أوسع الدوائر وأسماها . فله فى المناظرة طريقة ، وفى المحاورة طريقة ، وفى القصص طريقة ، وفى تقرير الأحكام طريقة ، وفى التاريخ طريقة ، وفى الوعظ طريقة . وهكذا فى كل موضوع من موضوعاته . وأنا أورد ما كشفت لى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار من بعض تلك الطرائق ، وما تحقق لى من تلك الحقائق .

طريقته فى المناظرة :

له فيها طريقتان :

١ ـ الاستدلال العقلى الصرف ، أى الرجوع الى مجرد العقل ، ونصبه حكماً بعبارات تصب المعانى فى قلب السامع الراغب فى الحقائق صب الحياة فى الأجسام القابلة لها ، على وجه لا يدع فراغاً لتسرب الشك الى صحة الدعوى وثبوتها ، وهنا السر فى البراعة ودقة الأسلوب .

٢ ـ الاستدلال بالوقائع العامة المألوفة لكل أحد ، المعروفة عند جميع الناس ، والرجوع اليها حكماً بانضمام العقل اليها .

وها أنا ذا أستظهر لك فصولا من هذا الباب ، موجزا فى الشرح على قدر الامكان .

أ ـ (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) :

وشرح ذلك : أنكم ، أيها المخاطبون ، تعترفون وتعتقدون أن آدم خلق ابتداعاً من غير أب وأم . فاذا كانت عقولكم تصدق ذلك وتحكم به ، فمن باب أولى أن تحكم بجواز ايجاد عيسى عليه السلام من أم بلا أب . فالعقل الصرف هو الحكم فى المسألة .

ب ـ (ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) :

وشرح ذلك : أن الاصنام التى تعبدونها لا تستطيع أن تخلق الذباب الذى هو من أضعف الحشرات ، بل ان هذه الحشرات الضعيفة ـ أى الذباب ـ اذا سلبت هذه الأصنام ما ضمخت به من مواد الطيب ونحوه ، فانها لعاجزة عن استنقاذه منها والذب عنه . والعقل السليم يستهين بمن كان بهذه المكانة من الضعف والهوان ، ويسمه بميسم الذل والحطة ، ولا يستسيغ أن يحسب له حساباً ، لا أن يتخذه معبودا . فالعقل الصرف هو الحكم فى المسألة .

ج ـ (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟)

وشرح ذلك : أنكم ، أيها المنكرون للبعث ، قد استبعدتم البعث ، واستعصى عليكم أن تجوزوا قدرة أحد على صب الحياة فى العظم الرميم ، فسألتم سؤال انكار : من يحيى

العظام وهى رميم ؟ ولم تنتبهوا الى أنفسكم ، ونسيتم خلقكم وايجادكم من مواد كانت ميتة ثم سرت فيها الحياة فنمت حتى كنتم بشرا سويا . - يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى - وصارت تلك المواد الميتة فى أصلها تعقل وتجادل وتناظر وتخاصم . فمن قدر على هذا - وهو أمر واقع مسلّم به - كيف لا يقدر على رد الحياة الى العظام الرميمة التى كانت متقمصة بها ، وذلك بطريقة هو يعلمها لم تألفوها . فالعقل اذا قارن بين النشأتين ، ووازن بين الحياتين ، لا يجد فرقا بينهما فى باب الامكان . فما الانكار الا غفلة عن حقيقة واقعة ، هى نظير ما استبعدتموه ، ومثيل ما أنكرتموه . فالعقل السليم وحده ، قاطع بامكان البعث ، وجواز حصوله . وانكار الممكن الجائز خروج على حكم العقل وخرق لنظراته الصائبة .

د - (وقالوا انما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين) :

وشرح ذلك : أنهم افتروا فرية عظيمة واضحة البطلان ، لأن مجرد الرجوع الى حكم العقل المحايد ، وعرض هذه الفرية على انصافه ، يجعل المرء يجزم ببطلانها ، ويحكم أنها صادرة من أفواه كاذبة ، وألسنة متطرفة متعصبة ، تلوك الباطل ، وترمى الكلام على عواهنه جزافاً ، اضلالا للناس ، وحطاً من مقام خصمها ؛ فان خصوم الرسول الأعظم لما عجزوا عن مناظرة القرآن الكريم وما حواه من علم وبلاغة وأدب - مع أن الذى جاء به رجل أمى - وألقوا سلاح بلاغتهم أمام قوة تحديه اياهم ، انصرفوا الى طريق الدجل - وما أضيقه ! - وتمسكوا بالأراجيف والبهتان - وما أضعفها مستندا ! - فقالوا : « انما يعلمه بشر » يريدون شخصاً معينا عجميا كان يسكن مكة . فجاء الدليل على اقتلاع هذه الفرية ، وهدم هذا المستند باستنطاق العقل وتحكيمه . فاذا عرضت القرآن بمزاياه وخصائصه على العقل ، مقررا أنه من صنع رجل عجمى بجنسه أعجمى بلغته ، يلقيه على رجل عربى عريق فى العروبة ، ناشىء فى أحضانها ، معروف بالأمانة والصدق ، لاستبعد العقل ذلك كل الاستبعاد ، ونطق قائلا : (لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين) فالرجوع الى حكم العقل السليم الصرف ، هو الدليل فى المقام .

هذه فصول موجزة من النوع الأول من طريقى الاستدلال ، لها نظائر وأمثال كثيرة تظهر للتالى المتدبر ، يستلهم شرحها من وحى الهداية واليقين .

وأما الطريق الثانى :

فما أكثر ما ورد عليه ! لأنه أظهر بياناً ، وأشد وضوحاً ، وأسد تقريرا ، يستوى

في ادراكه العالم والجاهل ، والنبيه والخامل ، والغبي والذكي ، والكبير والصغير . لأنه مبني على الحس والمشاهدة ، وقائم على أمور لا سبيل الى انكارها ، ولا طريق الى الصدود عنها والصدوف عن شهادتها والجدل والمكابرة فيها .

والقرآن الكريم في طريقته هذه ، يستعرض أولا تلك الأمور الملموسة أو المشاهدة ، فينبه العقل الى التفكير فيها ، ويحركه الى بحثها والحكم فيها ، ثم يعقبها بالدعوى المطلوبة صراحة أو ضمناً .

وأكثر ما جاء من هذا النوع جاء في معرض اثبات وجود الصانع وانتظار وقوع اليوم الآخر ونهاية العالم الموجود . واليكم أمثلة من ذلك :

أنكر الملحدون وجود صانع لهذا العالم العجيب الصنعة ، المحكم النظام احكاماً قوياً بديعاً ، لا يترك مجالا للشك في وجود مبدع له حكيم عظيم قوى عزيز ، لمن لفت نظره الى ما يشاهده فيه من ترتيب عجيب ، ودقة وانسجام ، وانتقل بعد ذلك الى حكم العقل مجرداً من حجب التعصب والتطرف التي تعمى الأبصار ، وتعمه بها البصائر ، فتصدى القرآن لاثبات ما أنكره أولئك الملحدون بالدليل المحس المنظور ، فقال :

أ ـ (ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحيّ ، ذلكم الله فانى تؤفكون . فالق الاصباح ، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون)

ب ـ (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون . وله من في

السماوات والأرض ، كل له قانتون) •

ج ـ (ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً • ان يوم الفصل كان ميقاتا) •

فهذه الفصول الحكيمة الثمينة ، الناطقة بالحقائق والوقائع المحسة ـ وأمثالها كثير في القرآن العظيم ـ جاءت في مقام الاستدلال على وجود صانع للكون ، قدير على كل شيء ، لا يستعصى عليه أمر ، ولا يقف دون ارادته محال ـ وان لم تتعلق ارادته بالمحال ـ• والخوض في شرح ما تضمنته هذه الآيات الكريمة من علوم ومعارف عالية غالية ، ليس موضعه هذا المقال ، وأكتفي بتوجيه المطالع الكريم الى الامعان بالتفكير في مواضيعها ، ومعانيها ، وصرف نور العقل الخالص من شوائب التطرف الى استجلاء ما فيها من الحقائق ، وتفهم ما جمعته من الوثائق ، والتبصر في النظام الدقيق السليم الذي أشارت اليه ، ثم الرجوع الى أصل الدعوى المراد اثباتها ، وهي وجود الصانع ، ثم اعطاء الحكم في الموضوع •

ومما جاء في هذا الباب في مقام ثبوت الصانع ، وامكان البعث واحياء الموتى ، قوله تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا للذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون ، فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون • ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت • ان الذي أحياها لمحيي الموتى ، انه على كل شيء قدير •)

طريقته في التاريخ :

لم ينزل القرآن الكريم ليملي على الناس حوادث الماضين وسير الغابرين ، أو يسرد وقائعهم السياسية وأساليبهم الاجتماعية ، أو يمحص الحقائق من الشوائب فيما اقترفوه ، أو يشبع رغبات محبي الاطلاع على مجهول مضى ، أو يستنتج النتائج السياسية والاجتماعية لتكون قدوة في مستقبل آت • كل ذلك ليس من غرضه عند تطرقه الى التاريخ ، وعرضه وقائع الأمم البائدة والباقية ، وقصه أحسن القصص ، وحكايته سلوك أمة أو سيرة شخص ؛ لأنه لم ينزل مدرساً للتاريخ أو مسجلا للحوادث ، كما أنه لم ينزل معلما للفلك والجغرافية عند بحثه مسائل فلكية أو جغرافية ، ولا أستاذا للكيمياء والفيزياء عند ذكره لمحات من حقائقهما وجملا من أمثلتهما • ليس شيء من ذلك مما قصد بتنزيله ، أو كان

محط النظر فى وحيه وتأويله . وقد أخطأ كل الخطأ من نصب نفسه للنزول بالقرآن الى عده كتابا يجمع خليطا من مسائل العلوم ، أو كناشة سجلت قضايا من الفلسفة والطبيعة والتاريخ ، معتقدا أنه يرفع بعمله هذا شأن القرآن ــ وهو الرفيع بنفسه ، أو أنه يدلل بذلك على اعجاز القرآن ، وهو المعجز بذاته . فليس فى عمله مدحة للقرآن ، أو رفعة من شأنه ، فان كتب الفلسفة كثيرة جمعت ضروب الفلسفة ومختلف طرقها ومذاهبها ، وكتب العلوم لا تكاد تحصر عدا ، وعت أدق مسائل العلوم النظرية والعملية . فأى فضل للقرآن أن يحشر فى عدادها ، ويحسب فى زمرها ؟ أليس فى ذلك حط للقرآن العظيم عن فضله ، ونزول به عن علو مقامه ؟

ان القرآن يهدف فى تقريره أولا وبالذات الى :

اثبات وجود صانع للعالم عظيم قدير .

والى وحدانية هذا الصانع العظيم القدير ، الذى يجب حمده وشكره وعبادته وحده، هدما للشرك الذى سود وجه الأرض ، وخرج بالناس مخارج تاهوا بها فى مجاهل الضلال ، ودلفوا بها الى موارد الهلاك .

والى اثبات اليوم الآخر ثم البعث ونشأة عالم جديد لا يشبه هذا العالم .

فهذه الأغراض الثلاثة ، هى التى يرمى اليها أولا وبالذات ، بشتى طرق البلاغة ، ومختلف أساليب التعبير (كذلك نصرف الآيات لقوم يعقلون) . وما الأمور الأخرى التى حملها القرآن الكريم من مسائل النبوة والكتاب وغيرهما الا آتية بعد تلك الأمور الثلاثة ؛ لأنها لا تخلو من كونها اما وسائل لهؤلاء الأمور ، واما توابع تعقبها بعد ثبوتها وتحققها . فالقرآن الكريم لا يتدخل فى أمر التاريخ وسائر العلوم ، ولا يأخذ من مسائلها وقضاياها الا قدر ما يخدم اثبات تلك الحقائق الثلاث ، أو يوحى فى النفوس عبرة وموعظة ترد العقول الجامحة الى صوابها ، لتتدبر الحقائق والدلائل القائمة ، وتتنكب طريق المكابرة والجدل ، فتصل الى الصواب (قرآن أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولو الألباب) .

فالقرآن الكريم اختط له طريقة خاصة فى التاريخ ، طريقة تفى بالغرض الذى يرمى اليه من دخوله ساحة التاريخ ؛ لذلك تجافى طريقة المؤرخين ، من اهتمامهم بتحديد الأزمنة والأمكنة ، وجهدهم فى ضبط الأسماء والكنى والألقاب وتسلسل الحوادث وسردها بالتفصيل . فاقتصر منه على ما يصيب غرضه ، فلم يذكر من الوقائع الا ما هو معروف مسلم به ، ولم يذكر من الأسماء الا من عنى بتأريخهم بالقدر الذى يؤدى الى

الغرض ، ممن لتعيين أسمائهم دخل جوهري في الموضوع كأسماء الأنبياء عليهم السلام، فلم يذكر أسماء الفراعنة وسائر الملوك الذين وقعت الحوادث التي سرد طرفاً منها في عهودهم ، ولا الأزمان ونحوها من الأمور التي يعنى بها المؤرخ ، لخروج ذلك عن دائرة ما يرمي اليه في ايراده القضايا التاريخية ، فانه لا يهدف في ذلك الا الى العظة والاعتبار ، فيورد ما يؤدي اليها بايجاز لا يزيد على المراد . وربما كرر ذكر الواقعة الواحدة في مواضع مختلفة بأساليب وتعابير متنوعة ، لما لتلك الواقعة من صلة بالموضوع من حيث العظة والاعتبار ، كقصة موسى عليه السلام ؛ فان لتكرارها في المواضع التي وردت فيها ، وبيان نتائجها ، أثراً بليغاً في تقرير الموضوع الذي عقبه ، والتفكير فيه ، خصوصا في زمن نزوله ، ذلك الزمن الذي بلغ فيه طغيان الملوك واستئثارهم بمقدرات شعوبهم واستهانتهم بالأمم الخاضعة لحكمهم حدا تجاوز في فظاعته حدود الظلم والجور .

طريقته في المحاورة :

المحاورة فن من فنون الأدب ، وهي غير المناظرة . فالمناظرة أن ينصب طرفان نفسيهما للاستدلال على اثبات أمر تخاصما فيه نفياً وايجاباً ، يعدّ كل منهما نفسه نظيرا لخصمه في المنزلة والمقام في الموضوع الذي يبحثانه ، للوصول الى الصواب ؛ لذلك لا تجري المناظرة بين تلميذ وأستاذه ، ولا بين مجتهد ومقلد ، ولا بين الشارع والمقتدي، بل يجري بينهما الاستفهام والمراجعة .

أما المحاورة ، فهي المراجعة في الكلام بين طرفين ، لبث شكوى ، أو غرام ، أو تفصيل أمر ، أو تهدئة خاطر ، أو نحو ذلك من الأغراض التي تقتضيها الحال والمقام ، مشتقة — على ما أعتقد — من حار يحور بمعنى رجع يرجع ، على حد (يحور رمادا بعد اذ هو ساطع) . فقوله تعالى في سورة البقرة : (اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال : أنا أحيي وأميت . قال ابراهيم : فان الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب ... الخ) مناظرة . وقوله في سورة الكهف : (فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا اكثر منه مالا وأعز نفرا ، الى قوله : وأحيط بثمره) محاورة .

وطريقة القرآن الكريم في المحاورة أن يوردها بغاية الايجاز ، بأوضح بيان وأسهل تعبير ، في مقام الوعظ والارشاد . ومن ذلك قوله تعالى في سورة يوسف : (وتولى عنهم ، وقال : يا أسفا على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال : انما أشكو بثي وحزني الى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون) . وأكثر ما يورد القرآن المحاورة تمهيداً لأمر

غريب سيقع ، وحادث عجيب سيحصل ؛ ليكون حصوله أبلغ فى الاعتبار بعد التنبيه اليه، وأوغل فى الوعظ بعد الاشارة الى وقوعه • ومن ذلك ما جرى منها بين الرسل والمرسلين اليهم ، كمحاورة نوح عليه السلام مع قومه ، ومحاورة هود عليه السلام مع شعبه ، ومحاورة لوط عليه السلام مع قبيلته ، ونحو ذلك من المحاورات بين سائر الرسل وأقوامهم •

طريقته في القصة :

القصة حكاية واقعة ، لغرابتها أو خطرها ، أو لدلالتها على ما انطوى عليه مجتمع : من أدب ، أو رقة ، أو عدل ، أو ظلم ، أو ذوق سليم ، أو فوضى ، أو خشونة فى الطبع ، أو تعسف ، أو سكوت على ظلم ، أو نحو ذلك من المعانى التى لا تحصى ، بأسلوب يجذب النفس للتطلع الى الاحاطة بأطرافها ، والتعمق فى مغزاها ونتائجها ، ويصور الحادثة تصويرا كأنك تشاهدها عن كثب ، فتأتى مثلا رائعا •

وأدب القصة معروف فى الأدب العربى ، قبل الاسلام ، وبعده • وقد تطرق القرآن الكريم اليه فى مواضع عدة (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك) للغاية التى يتوخاها فى ايرادها ، من الارشاد والوعظ ، والانذار ، والتحذير • دعماً للحجج التى أقامها فى اثبات مقاصده ، وتعليماً للسلوك الحسن الذى يجدر بالأمم والأفراد أن تسير عليه ، وتنبيهاً للغافلين من رقدتهم التى حجبتهم عن تبين حالتهم التى هم فيها ، وهم عنها غافلون •

وطريقة القرآن فى القصة أن يتبسط فى سردها بعض التبسط ؛ لأن مقام القصة وطبيعتها ، وتيسير استنتاج النتائج المهمة منها ، تقتضى التبسط فى ايرادها ، بل قد تقتضى الاطناب فيه • ولا يلوى فى أسلوبه هذا الى ذكر ما لم يكن من عناصر الحادث الذى يقصه ، كما يفعله أدباء القصة تخيلا بغية سدل ثوب ضاف على قصصهم ، واخراجها مخرج روايات تمثيلية ، لأن فى ذلك نوعاً من الكذب ، والقرآن يمقت الكذب ويحرمه مهما كان سبيله ، ويلعن الكاذبين •

وقد ضرب القرآن الكريم المثل الأعلى بأسلوبه فى أدب القصة • فهو مع تحاشيه التخيل والكذب فى صياغتها ، قد طبعها بطابع أخاذ بمجامع القلوب ، ينبه المشاعر والحواس الى استماعها بتلهف ، لما يتخللها من مفاجآت طريفة فى مضامينها ، وحلول لتعقدات فى مبانيها ، مضافاً الى ما يسمه هذا الطابع من المعانى الرفيعة ، وما ينطوى عليه من الحقائق والحكم السامية • وأبرز مثال لذلك قصة يوسف ، عليه السلام ، فقد جاءت مثلا معجزا

في أدب القصة ، بوضوح تعابيرها ، وانسجام فصولها ، وبراعة سبكها ، وبلاغة جملها ، وفصاحة ألفاظها ، وسهولة فهمها ، وتقلب النفس عند قراءتها من تأمل ، الى وجوم ، الى حزن ، الى يأس ، الى أمل ، الى رجاء ، الى فرح وسرور . ثم أخذها بزمام العقل الى استجلاء غرائز الانسان المتناقضة : من حب ، وبغض ، وحسد ، وحقد ، ومكر ، وشهوة ، وغرام ، وخيانة ، وكذب ، وبهتان ، وظلم ، وغضب ، وجور في الحكم ؛ واتباع للهوى ، وصبر ، وجلد ، واستقامة ، وصلابة في الرأي ، وصدق في القول ، واعتداد بالنفس . هذا مع ما فيها من العبر ، وما تشير اليه من حالة المجتمع العربي في ذلك العصر وقضائه وادارته ، وغير ذلك من الأمور التي يطول شرحها ، وليس هنا محل بحثها وبسطها .

طريقته في تقرير الأحكام

آيات الأحكام في القرآن الكريم على نوعين : نوع ورد نصاً لتقرير أحكام معينة ، ونوع ورد نصاً لأمر آخر ، ولكنه يدل على تقرير حكم من طريق الظاهر أو الاشارة . فالأول مثل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربوا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) . والثاني مثل قوله تعالى : (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) فان الآية وردت نصاً في وجوب نفقة الزوجة على الزوج ، ولكنها قررت حكما آخر يفهم من ظاهر عبارة (وعلى المولود له) ، وهو اعتبار النسب من جانب الأب لا من جانب الأم . وكذلك قوله تعالى : (ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار) فان الآية وردت اخبارا عن مصير المنافقين، ولكنها قررت حكما يفهم من ظاهرها ، وهو أن النفاق حرام واثم عظيم .

وطريقة القرآن الكريم في تقرير الأحكام أنه لا يجمعها كمواد قانونية ، أو ككتاب فقه يجمع أحكاماً تعد عدا وتسرد سردا ، بل يأتي بها متفرقة يتبينها تالي كتاب الله بين فصوله المتنوعة في مناسبات الكلام والبحث ، وبين مواطن الوعظ والارشاد . وهذه الطريقة أدعى لتلقي الاحكام باطمئنان النفوس ، وأرسخ في تفهم المقصود ، وأخف في تحمل التكاليف وأوفق لخطة التشريع ، بخلاف ما اذا جاءت كمواد قانونية مجموعة في مجلة ، أو ككتاب فقه يحفظ بين دفتيه ألوف المسائل بشروطها وأوصافها .

ثم انه يقرر أحكامه بوجهين :

الأول بطريق الفتوى جواباً عن سؤال ، مثل قوله تعالى : (يسئلونك عن الأهلة .

قل : هى مواقيت للناس والحج) و (يسئلونك عن الخمر والميسر ، قل : فيهما اثم كبير) ، (ويسئلونك : ماذا ينفقون ؟ قل العفو) • (ويسئلونك عن اليتامى ، قل : اصلاح لهم خير) • (ويسئلونك عن المحيض ، قل : هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) (يستفتونك فى النساء ، قل : الله يفتيكم فيهن •• الآية) • (يستفتونك ، قل : الله يفتيكم فى الكلالة : ان امرؤ هلك ليس له ولد ••• الآية)•

وفى هذه الطريقة تعليم للناس أن يسألوا أهل العلم والاختصاص عما يجهلون من أمور دنياهم وأخراهم ، وأن يأخذوا بما يرشدونهم اليه ، فضلا عما فيها من حسن تقرير للمسألة والحكم •

الثانى بطريق الانشاء ، وهو الغالب فيه ؛ لأن الناس لا يسألون عن كل ما يرغب المشرع فى تشريعه للمصلحة التى يراها • وهذه هى طريقة المشرعين المعتادة • مثل قوله تعالى : كتب عليكم الصيام • كتب عليكم القصاص فى القتلى • حرمت عليكم امهاتكم• لا يحب الله الجهر بالسوء من القول • ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من اتقى • أقيموا الصلوة وآتوا الزكوة •

ومن طريقته الحسنى فى هذا الباب ، أنه لا يقر الا الأحكام الاساسية التى يراها جوهرية فى التشريع ، والتى يرى ضرورة دوامها فى المجتمع الانسانى طول الدهر ، ويترك تقرير التفاصيل والاحكام الاخرى الى الرسول المبلغ ، شأن الدستور والقوانين والانظمة فى العصر الحاضر ـ وللقرآن المثل الاعلى ـ • ثم يفوض التفسير والاستنتاج الى الراسخين فى العلم •

والولوج فى هذا الباب ثم الخروج منه يقتضى بحثا طويلا ليس محله هذا البحث الوجيز • وأدع الاستزادة من بحث اسلوب القرآن وطرائقه فى مواضيعه الاخرى الى جهد الراغب فى البحث ، مكتفيا فى هذه الكلمة بما نبهت اليه •

- ٢ -

مفردات القرآن الكريم

اختار القرآن الكريم فى جمله الألفاظ العربية الفصيحة ، اللذيذة فى السمع ، الخفيفة على اللسان ، جامعة لشروط الفصاحة فى خلوها من التنافر والغرابة والتعقيد ، منتقاة من لآلىء بحر اللغة العربية ، منتظمة فى سلك الكلام البليغ المعجز ، لم تشبها شائبة ، ولم تصمها وصمة • قد خوطب بها عرب من سائر الناس فى ميزان البلاغة وتفهم

الكلام العربى ، ففهموا معانيها ، وعملوا بمقتضاها . وخاطبهم بها عربى أرسل لتبليغهم أحكام الله تعالى ، فى أوامره ونواهيه ومواعظه ، وفى أمثاله وحكمه وقصصه ، وفى دلائله التى أقامها على وجوده ووحدانيته ، وحججه التى أفحم بها الملحدين ، وبراهينه التى أعزبها المؤمنين . ففهم الناس كل ذلك بوضوح ، فآمنوا بما جاء به رسوله ، وصدقوه .

وبعد هذا ، أليس من الغريب أن يذهب بعض المشايخ الى وجود ألفاظ غريبة فى القرآن ، فيضعوا فيها كتبا قيمة يفسرون معانيها ، ازالة لغرابتها على زعمهم ، وبيانا لغموضها على رأيهم ؟! . من ذلك « مفردات الراغب » التى قال فيها : « فالمتشابه من جهة اللفظ يرجع الى الالفاظ المفردة اما من جهة الغرابة نحو : الأب ، ويزفون » ، و « غريب القرآن » لأبى بكر السجستانى الذى قال فى أوله : « هذا تفسير غريب القرآن ، ألف على حروف المعجم ليقرب تناوله ويسهل حفظه » .

ونحا نحوهما كثير ممن لهم قدم راسخة فى العلم والأدب قبلهما وبعدهما ، كابن دريد وابى عبيدة وابن الأنبارى والسيوطى وغيرهم .

وما أدرى كيف فات هؤلاء الأئمة أن الغرابة تمحو الفصاحة ، والفصاحة ركن من اركان البلاغة ، فاذا سقطت من الكلام ، سقطت بلاغته ، وأصبح سوقيا عاميا . والقرآن كلام الله المعجز ، والاعجاز أعلى درجة فى سلم البلاغة ؟ وما أدرى ، كيف جاز لهؤلاء الأحفياء فى الأدب العربى أن يطلقوا اسم الغريب على طائفة كبيرة من ألفاظ القرآن الكريم نظموها معاجم تسهيلا لانقاذها من وصمة الغرابة ، وهى الدرارى المتألقة فى سماء الاعجاز ، والدرر المنظومة فى سلك البيان ؟ وكيف يعقل أن يخاطب الرسول قومه بغريب الألفاظ ، وهو فى مقام التبليغ والتبيين ؟ (بلغ ما انزل اليك من ربك . وما أرسلنا من قبلك من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) . على أننا اذا استعرضنا ألفاظ القرآن التى وصموها بوصمة الغرابة ، وحشروها فى ساحة الغموض ، نجدها أوضح من فلق الصبح ، وأقرب تناولا فى أداء معانيها من أكثر الالفاظ التى عدوها قريبة لا غريبة ، وأليفة غير نافرة ، يفهم سامعها المراد منها بلا حاجة الى مراجعة المعاجم ، أو بمراجعة سهلة توصل الى كشف المعنى بلا تنقير مضن فى المعاجم ، ولا تفتيش طويل . وها أناذا أورد طرفاً من ذلك شاهدا على ما أقول :

آيات . أسلمت لرب العالمين . أسباب . افرغ علينا صبرا . الأكمه . من أنصارى الى الله . الأرحام . أنباء . آلاء الله . أدلى دلوه . أصنام . أصفاد . الأحزاب . اجتثت . اجنبنى . أترفوا . اهدنا . استوقد . اهبطوا منها . اصطفى . الحافاً . بارئكم .

بديع . بث فيها . بازغاً . بوار . بارزة . بهيج . تسفكون . تشابهت . قلوبهم . ترتابوا . ترهقهم . تسرحون . تبذير . ثواب . الثرى . ثاقب . ثعبان . جهرة . جن عليه الليل . جاسوا . زينة . سم الخياط . شرعة ومنهاجا . عفريت . عجاف . نكال . نبأ . نكثوا . نقموا . يوعون .

فهذه الالفاظ الممتازة ونحوها ، الجارية على اللسان بسهولة ، المفهومة المعانى بلا كد أو تعب ، قد عدّوها من غريب القرآن ، وهى من قريب القرآن لا من غريبه ، ومن اليفه لا من نافره وبعيده . فهل فى هذه الألفاظ الغرّ شىء من ملامح الغرابة ؟ وهل يتوقف فهم معانيها لأوساط الناس على مراجعة المعاجم المبسوطة والبحث عنها فى كتب اللغة المطوّلة ؟ كلا . فاذا لم يكن شىء من ذلك ، فلا غربة فيها ؛ لأن ميزان الغرابة ومقياسها فى الألفاظ ، وهو ما سألنا عنه لا غير . واذا أرادوا بالغريب معنى أوسع من هذا المقياس ، فهو خروج عن حدود الغرابة التى أقرها الأدباء ، ونطقت به كتب علم البلاغة اجماعا . فان أرادوا بالغريب ما خفى معناه على سائر الناس ، أصبح معظم كلام البلغاء غريباً ، وأصبح أكثر القرآن الكريم وسائر الكتب المنزلة وكلام أهل الحكمة من الناس غريبا . وهذا بعيد عن الصواب كل البعد ، ولا قائل به . فالمقياس فى حدود غرابة الفاظ ، هو فهم أوساط الناس ، وهم الذين لم يرقوا أعلى درجات البلاغة ، ولم ينحطو الى أسفلها ، بل وقفوا وسط الدرجات . ومن الغريب أيضاً استدلال من ذهب الى وجود الغريب في القرآن الكريم بما روى عن بعض الصحابة ، رضوان الله عليهم ، من توقفهم فى تفسير معانى بعض الالفاظ كلفظة (اب) فى قوله تعالى (وفاكهة وابا) ولفظ (يزفون) فى قوله تعالى (فأقبلوا اليه يزفون) . أقول : من الغريب الاستدلال بذلك على وجود الغريب فى القرآن ، لأن الروايات فى ذلك لم تتوافر فيها شروط الروايات الصحيحة ، فهى اما مكذوبة ، واما ضعيفة ؛ ولأن خفاء معنى اللفظ على فرد ، لا يستلزم خفاءه على غيره من أوساط الناس ، بله علماءهم ، بدليل أن من رووا عنه التوقف فى تفسير ما سئل عنه ، قد أحالهم على غيره من أضرابه ، ففسرها لهم .

ولا يقال : ان المتشابه فى القرآن كأوائل السور والآيات المتشابهة الأخرى غريبة لخفاء معانيها ؛ لأنا نقول : لا غرابة فيها ؛ فانّ ألفاظها مفهومة المعانى ، واضحة الدلالة عليها ، فان (كهيعص) مثلا تدل على الحروف المسماة بكاف ، وهاء ، وياء ، وعين ، وصاد ، دلالة ظاهرة ، فهى معانيها المفهومة لكل قارىء . وان كلمة (يد) مثلا فى قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) دالة على ما وضعت له بوضوح ، مفهومة المعنى بلا حاجة الى مراجعة

المعاجم ، وانما التشابه والخفاء جاء من جهة أخرى ، هي : ما المقصود من افتتاح بعض السور بأسماء حروف الهجاء ؟ وكيف صح نسبة (يد) الدالة على العضو المعروف في الجسد الى الله تعالى ؟ فليس في الدلالة غرابة ولا خفاء ، وانما الخفاء في وجه الاستعمال، وهذا بحث آخر لا علاقة له بموضوع الغرابة .

وبعد فألفاظ القرآن الكريم ، أفصح ما نطق به العرب من الالفاظ ، وما عده بعضهم غريبا هو أعرق نسباً الى الفصيح من الكلمات التي يحشرها البلغاء فيما يكتبون ، وانما جاءت شبهة الغرابة فيها من هجر استعمال الكتاب اياها ، وهم مخطئون في ذلك خطأ شنيعا . فألفاظ القرآن الكريم منتقاة من جواهر الفصيح من الألفاظ العربية ، تحلى الكلام حلية بهية ، وتكسبه فخامة وروعة ، سواء في ذلك النظم والنثر على الاطلاق ، في مقام المحاجة أو الخطابة ، أو في أي مقام آخر مما يجري فيه القلم واللسان .

فالواجب على كتّاب العصر الاستمداد من فيضها الدافق ، والاتصال بها فيما يكتبون اتصالا وثيقا ، والتباعد عن استعمال الكلمات الركيكة السوقية المبتذله . والطريق الموصل الى ذلك هو حفظ القرآن الكريم كله أو معظمه .

ومن خصائص القرآن الكريم في مفرداته ، استعماله الحقائق من المفردات ، فهو لا يركن الى الألفاظ المجازية الا قليلا أو نادرا ، في مواضع لا مناص من استعمالها فيها نظراً لفن الأدب ومورد الكلام ؛ لأن الحقائق أوفى بأداء المراد تاماً ، لا زائدا ولا ناقصا. وهو طريق واضح سليم تنكب عنه كثير من البلغاء والكتاب ، فأكثروا من المجازات ، وبالغوا في استعمال الاستعارات من مصرحة ومكنية ، ظانين أن في ذلك رفعة لكلامهم ، وعلواً لخطابهم ، وفخامة لما ينشئون . كما أن القرآن لا يركن في تراكيبه وجمله الى المجاز العقلي ، ولا الى الكناية ، الا قليلا عند مقتضى الحال ؛ لأن الكلام الحقيقي كفيل بايفاء المراد على حقيقته وقالبه ووضعه . وهذه المزية في الحقيقة لا تتوافر في المجازات العقلية والكنايات . ولكن كثيرا من الكتاب السالفين والمعاصرين ، لم ينحوا هذا المنحى تمشياً مع القول المأثور : المجاز أبلغ من الحقيقة ، والاستعارة أبلغ من التصريح . وهو قول لا نسلم به ؛ اذ لا يكون الثوب المعار أكثر ملاءمة من الثوب المقطوع على الجسم ، ولا الشيء الصريح أقل دلالة على مادته من الخليط . وان الوصول الى المراد من طريق الخيال ـ وهو طريق الاستعارة ـ خروج عن ايفاء المراد على ما هو عليه ؛ لأن الخيال يصور الشيء على غير ما هو عليه ، فلا يؤدي المراد صحيحاً كاملا ، فالكاتب جدير بأن لا يسلك هذا الطريق الا اذا سدت عليه الطرق غيره . واما اللذة التي قد يشعر بها الذهن

من التخيل ، فهى كالسراب لا يفتأ يذهب زائلا ، فلم يغن عن ظمأ ، ولم يخلف وردا ؛ لذلك نجد النفوس الفقيهة للأدب ، المتذوقة لثماره تنشرح للكلام الجارى على حقيقته ، وتستسيغ سماعه مهما طال فى حدود الموضوع ، ولكنها تنقبض من الكلام الجارى مع الخيال بعد السير معه الى أمد ؛ اذ أن الخيال يبعدها عن المراد رويدا رويدا ، فتنتبه الى أنها تاهت فى طريقها ، وأنها تستمع لغير ما بدأت بسماعه ، فتضيق به ذرعا . ولا يرد هذا العيب على التشبيه ، وهو حقيقة ؛ لأن التشبيه لا يجىء اقتضابا ، وانما يرد بعد معرفة حقيقة المراد . فبعد أن تحكى الحقيقة أو تعرف بوجه آخر ، يأتى التشبيه لزيادة الايضاح ، فالنفس مطمئنة به ؛ لأنه لم ينحرف بالمراد عن الحقيقة ، بل لم يزل جاريا معها مضيفا صراحة الى صراحتها ، فتألفه النفس راضية مرضية .

وبعد ، فالقرآن الكريم مثل أعلى فى أسلوبه ، وفى نظمه وتركيبه ، وفى مفرداته وجمله ، وعذوبة معانيه ، فهو التحفة الخالدة فى معرض البلاغة والمنوال الذى يجب أن ينسج عليه .

منير القاضى